قراءة في كتاب " قسنطينة أيام أحمد باي 1832 .1837"

للرحالة الألماني فنرلين شلوصر وتعليقات أبو العيد دودو .

د . سعيد بوخاوش

جامعة البليدة 2

الملخص :

يندرج هذا المقال في أدب الرحلة و يعالج موضوعا هاما جدا ، الجزائري في نظر الآخر ، حيث يعتبر قراءة لا فتة للنظر للباحثين و الطلبة لأحدى الرحلات التي قام بها أوروبيون مع بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر ، والمتمثلة في رحلة الألماني فنرلنين شلوصر و أيامه بالجزائر و قسنطينة إلى غاية تحريره من الفرنسيين بعد احتلال قسنطينة ، والتي قام بترجمتها الأستاذ الدكتور أبو العيد دودو .. المقال ملخص لهذه الرحلة .

Résumé :

Cet article qui fait partie de la littérature de voyage, traite un argument très important qui concerne la perception de l'élément algérien par l'autre. Il s'agit de voyages effectués en Algérie par des européens durant la période coloniale.

Notre recherche évoquera le récit de voyage de l'allemand Wendelin Schlosseret son séjour à Alger et Constantine jusqu'à sa libération par les soldats français, une œuvre qui sera traduite en arabe par le professeur Abou liid Doudou.

*** *** ***

رحلة شلوصر وضرورة إعادة القراءة :

بداية ينبغي أن ننوه بما قام به أبو العيد دودو[1] رحمه الله بأعماله الخالدة لاسيما ما يتعلق بترجمته للعديد من الوثائق التاريخية والأدبية من الألمانية إلى

العربية ، والتي تعتبر هذه الوثيقة واحدة منها وهي في 135 صفحة[2] وقد عنونها المترجم بـ" قسنطينة أيام أحمد باي (1832 . 1837) بينما وضع المؤلف فنرلنين شلوصر عنوانا طويلا سماه (رحلات في البرازيل والجزائر ، أو مصائر فنرلنين شلوصرالبومباجي السابق لأحمد باي قسنطينة) .

إن الظروف الراهنة التي نحاول فيها إعادة بناء شخصيتنا الوطنية تفرض علينا أن نهتم بما كتب الآخر عنا وأن نقرأه بعين ناقدة ، لننتشل شخصيتنا من كتابات التشويه والتضليل ، وبالمقابل علينا أن نهتم بالثورات والبطولات التي عرفتها أرضنا ، فمن المؤكد أن هذه المعرفة تساعدنا على الاعتزاز بماضينا ، والحفاظ على خصائصنا المتوارثة ، وقسنطينة عاصمة الجزائر الثانية لاسيما من حيث الجذور الثقافية تحتاج إلى مواصلة كتابة تاريخها والتعرف على ماضيها ، ثم إن صورتها عند الرحالة الأجانب متكاثرة ، وقد كتب عنها العديد من المؤرخين والأدباء .

مميزات الرحلة إلى الجزائر عند الرحالة الألمان :

وقبل الحديث عن هذه الرحلة أو هذه المذكرات يجدر بنا أن نلاحظ أن الرحالة الألمان على حسب تعبير د .دودو لم يضعوا كتبهم عن الجزائر حبا فيها ، ودفاعا عن حقوقها ، وإنما وضعوا أكثرها ولاسيما في الفترة الأولى لتكون دليلا لمن أراد من مواطنيهم الهجرة إلى الجزائر لإنشاء المستعمرات والإقامة بها إقامة دائمة تحت ظل الاحتلال الأجنبي وحماية حكومته ، ولا يمكننا بطبيعة الحال أن ننتظر منهم غير هذا الذي فعلوه ، فقد كانت مصالحهم مرتبطة بمصالح فرنسا..

ويذكر دودو أيضا أنه ينبغي أن لا نعجب حين نعثر ونحن نقبل على قراءة مثل هذه المؤلفات على كثير من الآراء المتطرفة والأفكار الخاطئة التي هي مجرد صدى لما كان موجودا في أوربا وما أكثرها في مذكرات شلوصر .

والحقيقة أن سبب اختياري للكتابة في هذا الموضوع يتعلق بالبحث في صورة المجتمع المغاربي في رحلات الآخر (الكتاب الغربيين) ، كما أنني أردت أن أفتح بابا للطلبة قصد الاهتمام بأدب الرحلات في القرن التاسع عشر و الذي كتب بأقلام غير جزائرية ، ومنه نستبين أمرين : تبيين كذب و أخطاء هؤلاء الكتاب . و تنقية تاريخنا و نظرة الآخر لنا في هذه الفترة لا سيما و أن هذه الكتابات ضلت مصادر بالنسبة للغربيين لفترة طويلة ، من جهة ومن جهة أخرى ، وفي غياب الكتابة الجزائرية في بدايات الاحتلال ، ونظرا للانفتاح الإعلامي ، فإن كثيرا من الشباب يلج إلى عالم الكتابة بأنواعها معتمدا على هذه المصادر لا سيما الكتابة للسينما و الأشرطة الوثائقية، بدون وجود قراءات نقدية مما تجعل التاريخ مزيفا .

وقد قدم أبو العيد دودو كتابه كمترجم له وكانت تعليقاته جد دقيقة وقليلة وهي تعليقات مقارنة لما بين يديه من كتب في هذه الحقبة التاريخية فهو يقول : " ليس في شيء أن أتدخل بين المؤلف والقارئ المتخصص ، وإنما أكتفي بالإشارة إلى أنه يحدثنا عن عدة شخصيات جزائرية لعبت دورا تاريخيا مهما ، ومع ذلك بقيت معلوماتنا عنها ضئيلة ، فهو يحدثنا بنوع من التفصيل عن حياة ابن زعمون ، وعلي بن عيسى وأحمد باي ، وأحمد بومرزاق ويصفهم وصفا مجسما ويستعرض برنامج بعضهم اليومي "[3].

قلة مصادر أبو العيد دودو في ترجمته للرحلة :

فأبو العيد دودو أثناء عرضه لمعلومات شلوصر يقارن مع ما جاء عن (تاريخ قسنطينة) ومذكرات أحمد باي وكذلك كتاب السياسة العثمانية ، فهذه المصادر الثلاث هي التي ركز عليها أبو العيد دودو في مقارنته وتعليقاته مع ما جاء عند شلوصر ، وتبقى هذه المصادر قليلة جدا مقارنة مع ماهو مطبوع اليوم بينما هذه التعليقات يعود تاريخها إلى عام 1977 ، وبالتالي ينبغي إعادة

قراءة هذه المذكرة في ضوء ما كتب في السنوات الأخيرة لاسيما وأن قسنطينة تعتبر أكبر مدينة بعد الجزائر من حيث تاريخها وحضارتها ، وهي ستكون عاصمة للثقافة العربية في سنة 2015 كما أسلفت .

أهمية هذه الترجمة :

إن أعمال أبو العيد دودو وغيره في مجال الترجمة في الفترة الأولى من الاحتلال مهمة جدا فهي تعطينا صورة عن الجزائر عامة بنظرة غربية ، فهي تبين نظرة الآخر للجزائريين عند الاحتلال ، وهذه المعلومات جد مهمة في مجالات علمية مختلفة ، فإضافة إلى الجانب التاريخي فهي تشكل مصادر أساسية في الأبحاث والدراسات في الأدب وعلم الاجتماع وعلم النفس والجغرافيا والقانون وغيرها من العلوم ، كما أنها مهمة لكتاب السيناريوهات لأفلام سنيمائية وتلفزيونية وأشرطة ثقافيةو كذلك كتاب الرواية والقصة هم بحاجة ماسة إلى هذه المعلومات .

فشلوصر حسب أبو العيد دودو يذكر الشيء الكثير عن الأوضاع في مدينة قسنطينة أيام الحملة الأولى والحملة الثانية التي تم احتلالها فيها ، وبين موقف المواطنين من العدو الأجنبي دون أن ينسى أن يحدثنا أيضا عن الحياة بأفراحها وأحزانها في المدينة والريف ويصورها تصويرا رائعا .

هكذا يعبر أبو العيد دودو عن هذا العمل ولكن يستدرك ويقول : " وإذا لم تكن المعلومات التي يوردها شلوصر كلها صحيحة كل الصحة لعدم وجود وثائق أخرى ، فإن ما يمكن مقارنته منها بالوثائق المتوفرة على الأقل لا يقبل الشك في صحته ، ثم يقول : وقد حاولت جهدي . وهو جهد إنسان غير متخصص . الإشارة إلى مواطن التشابه بين وثيقة شلوصر وبقية الوثائق التي بين يدي"[4]، ولكن يكفيه أنه قدم هذه الوثيقة للقارئ الجزائري

إن التعليقات على هذه الوثيقة قليلة جدا ، فهي لا تعدو أن تكون ترجمة أمينة لهذا العمل ، وتبقى هذه الوثيقة بحاجة إلى دراسة نقدية من قبل المؤرخين وعلماء الاجتماع والديموغرافيا وعلماء النفس قبل استخدامها من قبل الأدباء وقد تصير أفلاما مصورة يتنقلها العامة من الناس وهي تحوي صورا بشعة بعيدة كل البعد عن الحقائق التاريخية التي عاشتها الجزائر وقسنطينة عشية الاحتلال إلى غاية 1837م.

مخططات احتلال فرنسا للجزائر وتشجيعها للرحلات :

لم تكن الحملة العدوانية على الجزائر مجرد رد الاعتبار لفرنسا بعد حادثة المروحة ، بل كانت نتيجة تخطيط متواصل منذ العهد العثماني ، حين كانت الجزائر سيدة البحر المتوسط وقد تحدث الأستاذ فريد بنور في كتابه المخططات الفرنسية تجاه الجزائر (1782 . 1830)[5] عن الجواسيس الفرنسيين في الجزائر ودورهم في التخطيط للاستعمار ، ويمكن أن نذكر هنا باختصار أهم المخططات حيث نجد مشروعي كارسي الأول 1782 والثاني 1792 مخطط لوماي 1800 مشروع ديبواكانفيل الأول 1801 الثاني 1809 ، ومخططات نابوليونية كثيرة في القرن 19 م مثل مشروع جون بون سانت أندري 1802 ،مشروع تيدينا 1802، مشروع هولان 1802 ، مخطط بوتان 1808 ،مخطط بيار دوفال 1819 مشروع كولي 1827، مشروع شابرول 1827 دولابرو 1829 وغيرها .

واستمرت الجوسسة والتقاريرعن الجزائر حتى بعد الحملة واحتلال الجزائر ولاسيما مع إيجاد مترجمين في الجزائر [6]، وقدموا تقارير مفصلة عن كل مدينة وكان الأسرى الأوربيون المعتقلون بعد الاحتلال في المقاومة الوطنية ، سواء عند الأمير عبد القادر بالغرب الجزائري أو أحمد باي بالشرق الجزائري يلقون العناية الكافية إذا لم تظهر منهم أي خيانة ، مثلما حدث مع الألماني شلوصر

الذي ترقى في المراتب عند أحمد باي حتى صار مسؤولا عن المدفعية ، وهو من ساهم في احتلال قسنطينة حسب شهاداته الضمنية بعد أن اعتقله الفرنسيون ، ويذكر الدكتور عمر بن قينة أن الاستعمار الأوروبي شرع يستغل بعض الرحالين لتقديم تقارير عن الحياة السياسية والاجتماعية عن الجزائر لاستغلالها في بسط السيطرة الاستعمارية " وهذا من خلال كتابه المشهور[7] صورة الجزائريين حسب شلوصر ونماذج من التزييف ، ويؤكد ذلبك قول شلوصر نفسه : " إن الفتوحات الفرنسية الجديدة في إفريقيا. التي بسطت أمام عدد من المغامرين الألمان آمالا عريضة ، قد حملتني أنا الآخر على مغادرة وطني في شهر أفريل سنة 1831م و الإبحار إلى الجزائر مع الفرقة الألمانية الفرنسية .. وهناك وجدت عددا كبيرا من المتطوعين الألمان "[8].

خلاصة مذكرات شلوصر من خلال رحلته (أسره) :

يذكر شلوصر في المقدمة القصيرة لكتابه أنه عاش في الجزائر كواحد من أهاليها ولذلك سيقدم صورة آمنة عن حياة سكانها وعن أخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم ستكون أكثر صدقا من كل ما عرفه الناس عنهم عن طريق الجرائد ، الصحف السيارة ، والحقيقة أن شلوصر بعد أن تحدث في الفصل الأول عن مدينة الجزائر وحلوله بها وانضمامه إلى الجيش الفرنسي ، ومشاركته في الجرائم الكثيرة البشعة التي حلت بالجزائر العاصمة من طرد وقتل و تعذيب وتشريد ونبش للقبور وتقطيع للأيادي وبقر للبطون... يقع في أسر المقاومة الوطنية وهنا تتغير حياته، يقول شلوصر : " نقل مقرنا إلى القنطرة قرب الحراش .. كنا نقيم أمام العدو (يقصد الجزائريين) مباشرة وهو ما جعلنا نعيش في البداية في حذر شديد حتى لا يهاجمنا العرب ونحن دون حراسة ، ومرت شهور لم نر خلالها بدويا واحدا ، وهكذا تحول انتظارنا لمجابهتهم تدريجيا إلى اطمئنان فاعتقدنا أنه لا خطر علينا إطلاقا ، ثم اتضح لنا مقدار هذا الخطأ

الذي ارتكبناه يوم 2 أفريل 1832 ذلك اليوم الذي حكم علي فيه أن أتعذب لمدة طويلة"[9] .

ثم يروي قصة أسره ويقدمها في تراجيديا ليجعل من القاريء لاسيما المهاجرين الأوروبيين الذين يرغبون في الدخول إلى الجزائر أن يتعاملوا مع الجزائريين بشراسة ، وكأنها رسالة ودعوة إلى كل جندي فرنسي أو أوروبي أن يعامل العرب في الجزائر بكل قسوة .

وفي الفصل الثاني يتحدث عن القائد "**ابن زعمون**" وكيف وصل إليه ويقول : " لا شك أن كثيرا من قرائي يودون أن أقدم لهم قبل أن أودع ابن زعمون بعض التفاصيل عن هذا الرجل الذي لعب دورا تاريخيا جديرا بالاعتبار لذلك أروي هاهنا ما أعرفه عنه ... ابن زعمون رجل متوسط القامة يتراوح عمره بين الخمسين والستين ... " و هذه التفاصيل مهمة جدا بعد مقارنتها بالمصادر الأخرى ، ومما جاء في نصه : أن ابن زعمون موهوب الجانب و قد سمع بأعماله حينما كان في الجزائر ، ويحسن الفرنسية . " سألنا في الحين باللغة الفرنسية عما إذا كنا فرنسيين ، أو من أبناء أمة أخرى ، و حين أخبرناه بأننا ألمان انبسطت أسارير وجهه كثيرا ، و أدخلنا خيمته و أزال عنا القيود و طلب منا الجلوس .. " [10] ، ويعترف شلوصر باحترامه لهم كأسرى و إشرافه على خدمتهم بنفسه : " و حوالي الساعة السادسة صباحا يتبعنا أنا وزميلي ليشرف على أعمالنا و يتحدث معنا عن أوروبا و عن نظمها السياسية ، وعاهدها العلمية ، ومشاريعها الزراعية و غيرها " [11] وهذا يبين وعي هذه الشخصية المجهولة عند أبنائنا ، وكيف كانت النخبة الجزائرية التي رفضت الاحتلال تفكر . بل يضيف شلوصر: " أنه كان يحدنا بدوره عن كل ما يجد في الجزائر ، ولم يكن يعرف مقر الوحدات الفرنسية معرفة دقيقة ، وكذلك عدد الجنود الذين وصلوا و رحلوا ، والذين أصابهم المرض وماتوا، وإنما كان يعرف أيضا أدق أسرار السياسة الفرنسية، و عندما أخبرناه بأن صورته معلقة أمام مدينة الجزائر، و أن

الحكومة الفرنسية قد خصصت جائزة بعشرين ألف فرنك لمن يأتيها به ضحك"[12] ثم يتحدث عن **سيدي علي بن عيسى** وهو مرابط القبائل الذي تحضى بركته كل الجزائريين ، وهو يسكن سفح جرجرة ، وهو يقول أنها تنافس جبال الألب في العلو . " هذا الشيخ التقي الجليل قد ترك في نفوسنا منذ أول وهلة أثرا بالغا " [13] و ما نراه نحن اليوم حبا للخير للآخر يراه شلوصر غير ذلك تماما فهو يقول : " كل ما كان يزعجنا هو محاولة الشيخ حملنا على اعتناق الإسلام ، إذ كان علينا أن نحضر بعد الانتهاء من العمل الاجتماعات المسائية التي كان يعقدها في مسجده مع جيرانه " [14] " لم نكن أنا ورفيقي نفهم من ذلك شيئا لأن العرب و القبائل يتكلمون فيما بينهم بسرعة كبيرة ، وتخرج الحروف الساكنة كالشخير من حلوقهم " [15] ، ويتحدث شلوصر عن العناية التي لقيها عند سيدعلي بن عيسى :" كان الشيخ يستقبلنا وحدنا في ساعات محددة من النهار ، و يعلمنا النطق بالشهادة بصورة صحيحة ، وقراءة الفاتحة وترديدها بعده ، و كان من الصعب علينا أن نحفظها لأننا لم نكن نفهم منها شيئا ، لذلك أخذت حبرا وريشة وكتبتها بالحروف الألمانية فحفظناها خلال ساعة من الزمن ، وذهبنا إلى سيدنا ورددناها أمامه كالببغاء ، فاندهش لنا كثيرا ، وانتشر خبرنا في المنطقة كلها ، وصار منذ ذلك الحين يمنحنا مودته الحميمية و يقدم لنا طعاما أجود ، ثم علمنا فيما بعد الصيغ اللازمة للوضوء و أداء الصلاة ... " [16] و يروي شلوصر المعاملات التي لقيها عند هذا الشيح مدة إقامته : " ومر على إقامتنا شهر ونصف وقطعنا شوطا حسنا في تعلم اللغة العربية ، إلا أننا لم نكن قد وصلنا بعد في فهمنا لروعة الإسلام إلى درجة تحملنا على التخلي على تعاليم المسيحية المقدسة ، وعندما نفد صبره ، أخبرنا و الدموع في عينيه ، أنه لا يجوز له مادمنا لا نرغب في الدخول في الإسلام أن يأوينا في منزله بصفتنا مسيحيين لمدة أطول"[17] كما يتحدث عن مكانته بين بني قومه : " كانت لكلماته قوة غير عادية ، فما من كلمة تخرج من فمه إلا ويعتبرها أتباعه كلمة مقدسة " [18]

السفر إلى قسنطينة :

ينتقل إلى الفصل الثالث ليتحدث عن السفر إلى قسنطينة وما عاناه في الطريق في سبعة أيام كاملة ، وكان تركيزه خاصة على المعاملة القاسية التي يتلقونها في القرى والمداشر أثناء مرورهم بها فهو يقول : " لقد كان الشعب يتجمع حولنا كلما مررنا بقرية من القرى فيهتف أحدهم : نصارى ومن الفرنسيين ، اقطعوا رؤوسهم ، اذبحوهم . ويهجمون علينا بكل ما تصل إليه أيديهم من هراوي ومناجل وخناجر وسيوف ليقضوا علينا ، ولم ننج إلا بفضل جشع حراسنا الذين كانوا يأملون في الحصول على مكافأة مالية كبيرة من الباي نظير تسليمنا إليه "[19] ، ويقول في موضع آخر : " ولما لم يجدونا هناك صرخوا : أين الكفار " ويقول أيضا : " لقد حتمت علينا وعورة المنطقة أن سلك طريقا يمر بخمس أو ست قرى ، وما كاد السكان يسمعون بمرور أسرى مسيحيين حتى خرجت النسوة وهن نصف عاريات من جميع الأكواخ وهجمنا علينا بالمناجل والخناجر ، ومن حظنا أن أزواجهن لم يكونوا في البيت فقد كانوا يحصدون القمح .. كانت النساء اللواتي يوصفن عادة بأنهن أكثر حنانا من الرجال في هذه الدرجة من القسوة فكيف سيكون أزواجهن إذن ؟ لقد كن يطالبن برؤوسنا في غضب شديد وإذا هن لم يكن من ذلك فإنهن سيهاجمن الحراس .. "[20] وكل الصفحات الموالية تتحدث عن ذلك .

إن قراءة الجزائري اليوم لهذه الشهادات تبين مدى رفض الجزائري للاستعمار ومعارضته له من كل فئات الشعب بينما القسوة الحقيقية تكمن فيما قام به جنيرالات فرنسا في الأرياف والمدن من تشريد وتقتيل وتنكيل .

وفي الفصل الرابع ينتقل شلوصر للحديث عن الاستقبال في قسنطينة من قبل الباشحمبا علي بن عيسى (حاكم قسنطينة العسكري) : " كان غضب القسنطينيين مريعا ، فأصبحت المدينة كلها في حالة تأهب، وتعالى الصياح في

جميع الشوارع :" نصارى . فرنسيس "وتقاطرت الآلاف وأخذت تصيح اقطعوا رؤوسهم ، أحرقوهم ، سلموهم إلينا ودافع عنا الجنود معرضين حياتهم للخطر ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك بدافع إنساني ، إنما فعلوه لأوامر الباشحمبا الاستبدادية"[21].

يقدم شلوصر وصفا دقيقا لعلي بن عيسى ، ويتعمد شلوصر بعد كل فقرة أن ينقل لنا بشاعة الشعب الجزائري في رأيه و هي تعبر عن الرفض و المقاومة." شاهدنا في الطريق بغالا كثيرة ، لم يكن على ظهرها سوى 254 رأسا أرسلت إلى قسنطينة ليشاهدها الناس ، وعلى بعد مائة متر من ذلك وجدنا أيضا عددا من الجثث كان علينا أن نمر فوقها ، وكان بعضها لم يتعفن بعد ، أما البعض الآخر فافترسته بنات آوى "[22] .

صور من حياة أحمد باي وقسنطينة عند شلوصر :

في هذه (الرحلة) نتعرف أيضا عن صور كثيرة وكثيفة عن واقع اللحياة الاجتماعية والنفسية داخل قصر أحمد باي و خارجه تحتاج كلها إلى تحقيق وتدقيق و مقارنات و إعادة قراءة لتكون صالحة للاستعمال . يتحدث شلوصرعن وصوله عند أحمد باي ويقول : " يبدو لي أنه من المناسب أن أقطع القصة هنا لأحدث القارئ عن بيت الباي وشخصيته ومظهره "[23] ويتبين من خلال هذه الفقرات قدرة الكاتب على الحصول على معلومات دقيقة يفيد بها المحتل مستقبلا ،" أحمد باي رجل متوسط القامكة ، ضخم الجثة ، لم يتجاوز الأربعين من عمره بعد، حسب ما استنتجته من لحيته التي كانت لاتزال سوداء ، في حين أن سكان المدينة تشيب لحاهم وهم في سن الأربعين ، إن هذه اللحية التي تصل إلى منتصف صدره ، والعينين الكبيرتين الغائرتين ، و الصرامة الحادة تخلع عليه مظهر الطاغية ..لا يحرك ملامحه ليضحك أبدا ..يتكلم بطلاقة وبصوت واضح جدا ..ولباسه يلتمع بالذهب .. أما رفاقه الذين لا يفارقونه أبدا

فهم مسدسان وسيف ذو غمد ذهبي "[24]. ثم يتحدث عن قرار الباي في حقه فيقول : " وجاءنا في مساء اليوم التالي مملوك ، وقد ارتسمت علامات الرحمة والعطف على ملامحه ، وأخبرنا بلهجة حزينة بأن قرارا قد اتخذ بشأننا وهو أن نطرح أمام الكلاب تمزقنا ... لقد فاقت هذه القسوة كل توقعاتنا "[25] .

ينتقل بعدها إلى الفصل الخامس والذي يتحدث فيه عن العفو الذي صدر بعد إقناع المملوك لأحمد باي بضرورة إبقاء الأسيرين لتنقية قسنطينة يقول شلوصر : " استطعنا من جديد أن نتنفس بحرية "[26] .

ثم يتحدث عن واقع قسنطينة المزري أثناء عمله من 6 جويلية إلى 25 أوت 1832 ويظهر في تصريحاته تناقض واضح فبينما في فصل يذكر روعة قسنطينة وجمالها يقول في موطن آخر : " كانت قسنطينة في ذلك الحين تستحق عن جدارة اسم المزبلة "[27].

ينتقل بعدها للحديث عن بيعة أحمد باي ويركز على أمر هذه البيعة فيقول : " لا يودها أحد من قلبه بينما الخوف هو الذي يفرضها على الناس "[28] .

يتحدث عن سنة 1833 وكيف أنه كان بستانيا في قصر الباي ثم عاملا في توسعة القصر .ويتحدث عن سنة 1834 فيقول " تخلى مشرفونا عن صرامتهم السابقة إلى حد كبير وازدادت ثقتهم بنا عندما تعلمنا التحدث معهم بلغتهم "[29] .

يتحدث في الفصل السادس عن تعيينه في المدفعية وعن تعرفه على التجربة العربية في رمي القذائف ثم تعيينه مربيا للسباع في حظيرة الباي . يقول : " وذات يوم دعيت بصورة لم أكن أتوقعها للمثول بين يديه فالتقيت عنده بتركي عجوز يتقلد منصب حارس السباع وبعد تقديم فروض الطاعة خاطبني بالاسم الذي أطلقه عليه هو نفسه وهو عبد الرحمن بن أحمد وقال لي : " عليك يا عبد الرحمن أن تذهب الآن مع هذا التركي إلى حظيرة الأسود وتتعلم منه كيف تطعمها وكيف تعاملها ، وحين تتعود على ذلك يترك الحارس السابق منصبه

لكبر سنه ولتبق أنت وحدك معها "[30] . يتحدث عن هذه التجربة أكثر من ست صفحات .

وينتقل إلى الفصل السابع ونجد فيه حديثا عن علاقة أحمد باي بالباب العالي وهجومه على مدينة المدية وكان الفرنسيون قد احتلوها فيما بين 1830 . 1831 ولكنهم طردوا منها ولم يبق الأهالي يدفعون العشور للباي عندما تأكدوا من حماية الفرنسيين لهم ،يصف وصفا دقيقا جيش أحمد باي وعدده وعدته مما يؤكد أن أخبارا كانت تصل إلى الفرنسيين من هؤلاء الأسرى يقول : "كان معسكر أحمد باي يتكون من 120 خيمة كبيرة شبيهة ببيضة مقطوعة من الوسط تكون شكل دائرة تتسع الواحدة منها لخمسين جنديا من المشاة ، وفي هذه الدائرة توجد خيام الفلاحين الفرسان المختلفة الأشكال والألوان ... " [31]. يتحدث عن الجوائز التي يعطيها الباي لمن يجلب رأسا للعدو: " لكن الهجوم الثاني لم يجلب رؤوسا أيضا فاشتد به الغضب ورفع الجائزة إلى 100 و 200 بل 300 ريال وذلك ما كان ينتظره الفلاحون الجشعون ، وهكذا هجموا على الأعداء كالأسود ولم تمض ساعتان حتى تجمع عند قدمي الطاغية 496 رأسا ولكنه مع ذلك لم يشف غليله من الدماء "[32] .

هكذا يصور شلوصر أحمد باي ، ثم يتحدث عن غروره وجعله من نفسه باشا وعين بايا لقسنطينة وهو أحمد بن مصطفى بومزراق باي المدية السابق ويقدم وصفا وترجمة لهذا الأخير في الصفحات الموالية، يتحدث في الفصل الثامن عن حصار قسنطينة سنة 1836 وانهزام الجيش الفرنسي ويصف أفراح قسنطينة فيقول : " وأقيمت أفراح حقيقية شبيهة بأفراح الهمج استمرت ثلاثة أيام "[33] .

بينما خصص الفصل التاسع للهجوم الثاني وسقوط قسنطينة في أيدى الفرنسيين واستسلامه للفرنسيين بينما الفصول التالية تتحدث عن أخبار رفقاء المؤلف أيام المحنة .

ثم يتحدث عن القسنطينيين تحت حكم الطاغية أحمد باي (حسب تعبيره) ويتحدث عن القضاء وأصحاب الكرامات ، الأعيان ، طريقة الزواج وعن التجارة وعن العملة النقدية .

ثم يتحدث في الفصل الثالث عشر عن معيشة العرب وتجهيزاتهم المنزلية ، ثم ينتقل للحديث عن معيشة القبائل لأحداث الفرقة في المجتمع الواحد ، ثم يتحدث عن عرب الصحراء ومعيشتهم .

وهكذا يتبين أن شلوصر هو الآخر لا يعد أن يكون أسيرا مدسوسا من الفرنسيين حينما كان قائدا للمدفعية ، وها هو بعد ذلك يقدم أخبارا كثيرة بعد 1837 عما عايشه بنفسه من أجل التعريف بهذه البلاد الطاهرة حتى يغري المستوطنين الجدد بالتوجه إلى الجزائر .

إن دراسة هذه الكتابات التاريخية ينبغي أن توضع ضمن ما كتبه الغربيون عن الجزائر في تلك الحقبة، وإن وجود حلقات مفقودة في تاريخنا تجعل من الكتابة في الرواية أو الكتابة للأفلام أو الأشرطة الوثائقية محفوفة بالمخاطر ، فكثيرا ما تأخذ مثل هذه الشهادات أصلا للكتابة وتقدم للعامة على أنها هي الأساس وهي الواقع في حين المطلع على حقائق الأشياء يتبين له غير ذلك .

فقسنطينة حسب كتابات أوروبيين آخرين وجزائريين عايشوا الفترة كان بها مساجد ومدارس وأسواق عامرة وأحياء وكانت بها طرقات وجسور، وحياة اجتماعية مترفة و أوقاف واسعة ... لقد كانت قسنطينة حاضرة العالم الإسلامي ولازالت إلى اليوم .

خلاصة القول : إن ترجمة أبو العيد دودو كانت ترجمة صادقة تبين رؤية الآخر للمسلمين والجزائريين وتكشف عن النظرة العدائية التي تهدف سلب الهوية والوطن من أهله وتقديمه إلى الفرنسيين ، وكل مقاومة هي قسوة في نظرهم ،

وتبقى التعليقات على هذه الرحلة ضعيفة جدا تحتاج إلى إعادة النظر في ضوء ما اكتشف حديثا من كتابات تاريخية عاصرت الحدث .

إن طلبة اليوم مطلوب منهم أن يعيدوا قراءة ما كتب الآخر عنا ، برؤية عربية خالصة ، ويقدموا قراءاتهم مترجمة إلى اللغات الأجنبية ، في حياد تام و موضوعية ، تجعل الآخر يطلع على حقيقة الأشياء كما هي لا كما أراد لها الفكر الاستعماري تصويرها .

الهوامش:

1أبو العيد دودو (1934 - 16 يناير2004) ولد في بلدة العنصر، جيجلبالجزائر، كان قاصا وناقدا أدبيا ومترجما، عمل أستاذا جامعيا بالجزائر في قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب جامعة الجزائر.ويعتبرمن بين أبرز المثقفين في الجزائر الذين عملوا في صمت على إنتاج ثقافة نوعية. فقد كتب القصة والمسرحية والدراسة النقدية والدراسة المقارنة وقصيدة النثر ،كما مارس الترجمة إلى العربية من أكثر من لغة كما ترجم إلى الألمانية بعض قصصه وقصائد عدد كبير من الشعراء الجزائريين المعاصرين.من أعماله الأدبية: بحيرة الزيتون (قصص 1967م)- التراب (مسرحية 1968م)- دار الثلاثة (قصص 1971م)- البشير (مسرحية 1981م)- الطعام والعيون (قصص 1998م)- كتب وشخصيات (دراسة 1971م)- الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (دراسة 1975م)-الحمار الذهبي للوكيوسأبوليوس...مد أبو العيد دودو بتنقله السهل بين اللغتين العربيةوالألمانية جسورا بين الثقافتين فنقل إلى العربية بعض ما كتبه الرحالة الألمان عن المجتمع الجزائري قبل الاحتلال الفرنسي، وهي صفحات عمل المستعمر على تغييبها من تاريخ الجزائر، ومن بينها:- القصة الأولى من ثلاثية (مالتسان): التي كتبها عن الجزائر في القرن التاسع عشر- مدخن الحشيش في الجزائر.- الجزائر في مؤلفات الرحالين الالمان الذي صدر سنة 1975- ثلاث سنوات في شمال غربي أفريقيامالتسان- قسنطينة أيام أحمد بايلشلوصر.توفي الدكتور أبو العيد دودو يوم الجمعة 16 جانفي2004. بعد أن أبدع وو ترك أثرا كبيرا في اللغة العربية ناهيك عن كونه قدوة حسنة لكثير من الأشخاص.

[2] أبو العيد دودو : الترجمات التاريخية ، قسنطينة أيام أحمد باي 1837/1832، الجزائر : دار الأمة ، 2009 طبعة خاصة وزارة المجاهدين ، ص : 5

[3] أبو العيد دودو ، الترجمة التاريخية الكبرى ، قسنطينة أيام أحمد باي ، ص : 6

[4] المرجع نفسه ، ص : 7.

[5] فريد بنور ، المخططات الفرنسية تجاه الجزائر (1782-1830)

على غرار جوني فرعون مترجم حملة دوبرمون .[6]

عمر بن قينة ، اتجاه الرحالين الجزائريين في الرحلة ، ص : 15 [7]

شلوصر ،قسنطينة أيام أحمد باي ، ترجمة : أبو العيد دودو ، ص : 9[8]

شلوصر ، ص : 13[9]

شلوصر ص : 19[10]

شلوصر : ص 19[11]

شلوصر : ص 20[12]

شلوصر : ص 22[13]

شلوصر : ص 22[14]

شلوصر : ص 22[15]

شلوصر : ص 22[16]

شلوصر : ص 23[17]

شلوصر : ص 23[18]

شلوصر : ص 26[19]

شلوصر : ص 27[20]

شلوصر : ص 28[21]

شلوصر : ص 29[22]

شلوصر : ص 30[23]

شلوصر : ص32[24]

شلوصر : ص33[25]

شلوصر : ص35[26]

شلوصر : ص36[27]

شلوصر : ص36[28]

شلوصر : ص40[29]

شلوصر : ص46[30]

شلوصر : ص55[31]

شلوصر : ص56[32]

شلوصر : ص58[33]